المحاضرة الثانية

نشأة البحث الدلالي العربي

1-تمهيد:

تندرج هذه المحاضرة في سياق تاريخي بعيدا عن صميم موضوعات علم الدلالة أو مباحثه المختلفة، والغرض هنا الإشارة غلى بعض الممارسات التي عرفها الغعرب القدامى وذات صلة بعلم الدلالة.

في البداية لا بد من الإشارة إلى قدم التعرض للظاهرة اللغوية بالتفكير والتامل فهذا سلوك قديم عرفته مختلف الحضارات الإنسانية، فبالعودة إلى تاريخ البحث اللغوي الإنساني نجد أن الهنود مثلا كانت لهم إسهامات لغوية في إطار احتفائهم بكتابهم المقدس" الفيدا"، وكذلك اليونان كانت لهنم بصمة خاصة في الدرس اللغوي وبخاصة النظرة الفلسفية للقضايا اللغوية، واللغويين العرب لم يشذوا عن القاعدة إذ يعزى للحضارة العربية الإسلامية ذلك الإسهام الكبير جدا والمتنوع إزاء العديد من القضايا اللغوية سواء منها المتعلقة باللغة العربية في حد ذاتها أو المتعلقة باللغة كظاهرة إنسانية.

2-بدايات الدرس الدلالي العربي القديم:

إن الدرس اللغوي العربي القديم بصفة عامة امتاز بالبدايات التي وسمتها الأفكار ذات البعد الدلالي الصرف وهذا عكس بدايات الدرس اللساني الحديث على يد "دي سوسير" مؤسس التيار البنوي في اللسانيات الذي كان شكليا بامتياز مقصيا الجوانب الدلالية وقضايا المعنى على أساس أنها ظواهر يصعب التقاطها علميا وإجراء التجربة عليها كما هو معروف في التقاليد العلمية المعمول بها آنذاك التي تدرس كل ما هو قابل للملاحظة والتجربة والتصنيف وغيرها.

وبالعودة للدراسات العربية القديمة في بداياتها، وما يؤكد طبيعة الانطلاقة من قضايا دلالية هو المؤلفات الأولى التي ظهرت من خلال استقراء تاريخ البحث اللغوي العربي القديم والتي عرفت "بكتب الغريب" وهي كتب ألفها أصحابها بغرض شرح بعض الكلمات الواردة في القرآن الكريم ثم الحديث النبوي الشريف في مرحلة لاحقة، و التي بدت غريبة على بعض العرب وهي من باب عدم تعودهم على استعمالها أو كونها مخصوصة بلهجة دون أخرى، حيث انبرى هؤلاء لشرح معاني هذه الكلمات وبيان سياقات استعمالها والمعاني المقصودة من الاستعمال القرآني لها.

ويتصل صدور الدرس الغوي العربي القديم من قضايا دلالية سبقت المباحث النحوية والبلاغية والنقدية بالقرآن الكريم في حد ذاته، فالمقصود من سوره وآياته هو إدراك معانية

واستجلاء الأحكام الواردة فيه والمرتبطة أشد الارتباط بحياة المسلمين (الأحكام الشرعية)، وذلك لا يتم إلا بالوقوف على معانيها ودلالتها وسياقاتها حتى يستقيم الحكم المستنبط منها ويتم فهم المقصود والكامن وراء الكلمات والتراكيب القرآنية.

يقول أحد الباحثين مؤكدا هذه الفكرة: " ولعظم أهمية الألفاظ، أعارها علماء العربية عنايتهم من الدراسة والجمع، فكانت بواكير المؤلفات اللغوية تدور حول الألفاظ، من هذه المؤلفات كتب "غريب القرآن"، وفي طليعتها كتاب عبد الله بن عباس (ت68هـ /687م)، الذي عدّ اللبنة الأولى في بناء المعاجم العربية، ثم توالى التأليف في هذا اللون من اللغة، فعرف كتاب غريب القرآن لأبي عبيدة، وكتاب غريب القرآن لمؤرج السّدوسي، وكتاب غريب القرآن لابن قتيبة، وكتاب غريب القرآن لأبي عبد الرحمن اليزيدي، وامتد هذا النوع من التأليف اللغوي إلى الحديث النبوي، فكان منه كتاب غريب الحديث لأبي عبيدة، وكتاب غريب الحديث للأصمعي، وكتاب غريب الحديث للنضر بن شميل وكتاب غريب الحديث لقطرب وكتاب غريب لابن الأعرابي، وغيرها، وتجاوزت مؤلفات العلماء في الغريب حدود القرآن والحديث إلى اللغة نفسها، عرف من كتبها غريب اللغة للدار قطني (علي بن عمر) ، وتفسير الغريب لبزرج بن محمد العروضي، وغريب الحديث والكلام الوحشي للأصمعي، وغريب الأسماء لأبي زيد الأنصاري... وغيرها.

ويمكن للباحث استعراض العديد من المؤلفات العربية القديمة التي تنذرج كما ذكرنا في إطار كتب الغريب والتي نذكر منها علي سبيل الذكر لا الحصر:

-تفسير المشكل من غريب القرآن للمكي بن أبي طالب.

-تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب لأبي حيان الأندلسي

-تفسير غريب القرآن لأبي قتيبة

-غريب القرآن لمحمد بن عزيز السجستاني.

وتطورت الأبحاث في المستوى الدلالي عند العرب القدامى من مستوى يتجاوز مجرد البحث عن معنى الكلمة أو التي استغلق معناها عن العرب أو حديثي العهد بالإسلام إلى جمع الكلمات التي يضمها مجال دلالي واحد أو ما بات يعرف في الدرس الدلالي الحديث بالحقول الدلالية والتي سنخصص لها محاضرة مستقلة.

وقد عرفت المؤلفات التي جمعت الكلمات ذات المجال الدلالي المشترك (مثال:كلمات رأى-نظر-شاهد....مجالها الدلالي الرؤية) **بالرسائل الموضوعية**، أي تلك الكتب الصغيرة الحجم التي ضمت ألفاظا تتقارب في معانيها ومن أمثلة ذلك رسائل موضوعية انصبت على

الأنواء أو الأمراض (الأدواء) أو الإبل أو الأسد وغيرها مما يمت بصلة للبيئة العربية القديمة.

وتطور الاهتمام بالظاهرة الدلالية عند العرب المسلمين قديما من مجرد حصر المفردات الصعبة والغريبة وشرحها أو إعداد رسائل ذات موضوع لفظي/دلالي واحد، إلى التأليف المعجمي أي إعداد المعاجم التي يزخر تراثنا بعدد هام وهائل منها ضمن على مر العصور الحفاظ على اللغة العربية ورسم لنا صورة عن تطور ألفاظها ومختلف سياقات استعمالها، ويعد هذا الأخير أي التأليف في المعجمية نوعا ومن أنواع الاهتمام بالجوانب الدلالية في اللغة.